الابقاء على حياته. والمرحلة الخامسة في الكتاب هي مرحلة الخروج من السجن سنة ١٩٦٥ والاستقبال الفاتر «للعائدين من الجحيم» والمعاناة الجديدة لهم التي أسهم في خلقها اليمين المهيمن على قيادة الحزب وذلك حتى سنتي ١٩٦٧ و ١٩٦٨. ثم المرحلة الأخيرة التي اعقبت أحداث ايلول (سبتمبر) ١٩٧٠ وحتى وفاة فؤاد نصار امين عام الحزب وبداية مرحلة جديدة من النضال بعد أن أعاد الحزب بناء نفسه وتصحيح مساره النضالي.

البدايات

في احدى مضارب البدو في قرية نائية من قرى الكرك، يولد يعقوب زيادين، والى أن يصبح طبيبا كبيرا ومناضلا شيوعيا بارزا، يجتاز مفازة طويلة شاقة. ولعل اهم ما يذكره كتابه عن مرحلة الطفولة وسنوات الدراسة، هو شبح الفقر والجوع الذي ظل يطارده، وتزوعه الى العدالة الاجتماعية النابع من رفض واقع التسلط الاقطاعي المحيط به، ممثلاً في استعباد عشيرة المجالي للفلاحين في قريته والقرى المحيطة. وفي هذه المرحلة يرصد الكاتب بدايات نشوء الحركة الوطنية في المجتمع الاردني التي تبدأ في الثلاثينات، مع عودة اجيال من خريجي الجامعات الذين يذكر منهم على سبيل المثال المناضل سليمان النابلسي الذي كان استاذه في مدرسة الكرك المتوسطة، والاستاذ محمد أديب العامري الذي كان مدير المدرسة الثانوية في السلط.

أما بدايات الوعي الماركسي، التي بدأت مع جيل زيادين، فتتكون في مطالع الاربعينات في صفوف الحزب الشيوعي السوري حيث تتشكل الحلقات الماركسية الاردنية التي تنخرط فيما بعد مع مناضلي عصبة التحرر الوطني في فلسطين، في الحزب الشيوعي الاردني، سنة ١٩٥١.

سنوات حافلة بالنضال: عندما يحل زيادين في القدس سنة ١٩٥٠ ليعمل في مستشفى الارغستا فكتوريا (المطلع) يكون قد اكتسب خبرة مهنية ونضالية، خلال عمله في مستشفى بطرابلس - لبنان، وخلال نضاله في صفوف الشيوعيين السوريين واللبنانيين. وفي القدس بدأ نشاطه السياسي بتشكيل أول لجنة من لجان الدفاع عن السلام وبدأ كذلك اتصاله بالشيوعيين من اعضاء عصبة التحرر الوطني في فلسطين.

وفي هذه الفترة يبدأ في تنظيم المحاضرات والندوات، ويجمع التواقيع على نداء استوكهولم للسلام. وفي سنة ١٩٥١ يقود معركته الاولى دفاعا عن ١٥٠ عاملا في مستشفى المطلع الذي كانت وكالة غوث اللاجئين قد قررت اغلاقه، وكذلك دفاعا عن عشرات آلاف المواطنين الذين يقدم المستشفى لهم الخدمات الطبية؛ وقد استطاع بتحويله قضية المستشفى، الى قضية جماهيرية واسعة أن يحميه من الاغلاق فنال بذلك سمعة نضالية واسعة.

وفي اوائل سنة ١٩٥٣، يشارك زيادين في مؤتمر فيينا للدفاع عن الشعوب، وبعد عودته يساق الى معتقل الجفر، وذلك للمرة الاولى في حياته، وبعدها تتلاحق زياراته لهذا المعتقل سيء الصيت.

وسنة ١٩٥٣ يدخل الاردن مرحلة النهوض الوطني، ويكون الحزب الشيوعي الاردني قد اكتسب جماهيرية واسعة عبر نضال أعضائه ضد الالحاق والضم، وتقديمهم الشهداء والتضحيات من جراء مواقفهم المعارضة للضم. وعن هذه المرحلة يقول زيادين «كان الحزب والحركة الوطنية آنذاك، في بداية انتعاش واضح، فقد استوعب الناس الكارثة التي حلت بالشعب الفلسطيني، كما استوعبوا قضايا الضم والالحاق. وبدأ العمل المشترك بين جماهير الشعبين بشكل يتطور يوميا. وقد كان معروفا وملموسا نشاط الشيوعيين والبعثيين والقوميين العرب، وبداية تحرك العناصر الوطنية المستقلة بزعامة سليمان النابلسي» (ص٥٦).

ويبدو إيقاع الحدث في تلك الفترة وكما يرويه الكتاب، سريعا حافلا بالتطورات: مظاهرات، وحوادث اصطدام مع الشرطة واعتقالات واسعة، ثم انتخابات ١٩٥٤ التي زورتها السلطة بطريقة مفضوحة، ثم مظاهرات التضامن مع الملك محمد الخامس وعرائض لمنع ملك ليبيا من تأجير قاعدة عسكرية لأميركا